الغيابُ الموجِع

قال مُهَلْهِلُ بنُ رَبيعةَ في رِثاء أخيه كُليب[١]:

١ نُبِّئْتُ أنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ ... واسْتَبَّ بَعْدكَ يا كُلَيْبُ المجلسُ
٢ وَتَكَلَّموا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ ... لو كنتَ شاهِدَهُم بِها لم يَنْبِسوا

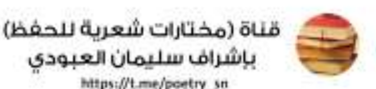
نقل أبو عثمان الجاحظ (٢٥٥هـ) وغيره أنه قيل لأعرابي: ما بالُ المراثي أجودُ أشعاركم؟ قال: **لأنا نقول وأكبادنا تحترق!** كان ذلك الجواب ملائما للحال قبل أن يتحول غرض الرثاء على مر العصور إلى واجب اجتماعي يُلقى على عاتق ذوي الراحلين وأصحابهم، فيجعل شاعرا كبيرا مثل أحمد شوقي يقول في مطلع مرثيته المتأخرة فَنّيا عن إمكانياته الشعرية: (**سألوني لمَ لمْ أرثِ أبي؟!**)، فالمفترض من شوقي -حسب هؤلاء السائلين- أن يرثي والده الراحل بكل حال، وأن يخلق أحزانا من العدم، ويحنطها في جوف أوزان شعرية من نحاس، وأن يجتهد في بناء تمثال لغوي من جليد يذوب بعد نصف نهار!

نعم.. فَعَلَ شوقي كل ذلك حسب طلبات المستمعين، وكتب قصيدةً اختفت مبكرا في زحمة ديوانه، لأنها سارت من القلم إلى النشر، فلم تمر بكبد محترقة موجوعة نحو كَبِدِ ذلك الأعرابي.

احتراق الأكباد هو ما تجده بيّنا وأنت تتلو دالية ابن الرومي، وعينية أبي ذؤيب الهذلي، ورائية التهامي، وميمية شوقي في رثاء والدته، وهو ما جعل المراثي أروعَ وأوجع وأصدق ما كتب في الشعر العربي القديم.

ومن أروع الأبيات التي تروقني للغاية في هذا الغرض، هما بيتا مهلهل في رثاء كليب، وذلك لكونهما نجحا ببراعة في التقاط مشاعر الفَقْدِ الموجعة، فمن أوجع ما في الفقد استشعار قوة

[١] عدي بن ربيعة بن مرة بن هبيرة، من بني جشم بن بكر، أبو ليلى، المهلهل، لُقِّب مُهَلهِل لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي رَقَّقَه، وهو خال الشاعر امرئ القيس.



حضور الراحل المعنوية، واستحضار مكانته وهو يملأ المكان، ثم تهيمن حقيقة الغياب فتمضي الحياةُ بعدَه بحالتها الرتيبة، لكن مع تبدل قســـري في الأدوار، وانقلاب الهامش على المتن، وتقدم الساقة على القافلة.

ليس بالضـــرورة أن يكون الراحل -كما كان كليب- مَلِكًا يقرع الناس بســـيفه، بل فقدان الحضور الوجداني العميق الذي يبسط سلطانه المعنوي في النفوس أبلغ وألصق بالمعنى الجميل المخبَّأِ في بيتي المهَلهِل.